طلقة تنقذف من فوهة الرشاش هي جزء من الحملة الاعلامية لقضية فلسطين . ولكن مرة اخرى كان ذلك منطق بينت الاحداث ركاكته . اذ بصراحة: كما أن الاعلام الذي لا ينبثق عن مقاومة مسلحة يبقى من غير فائدة ، فكذلك « الاعلام المسلح » وحده لم يعد كافيا . هذه المعادلة تشير الى حقيقة بدهية لم تعد خافية على أحد ، فما العمل اذن ؟ ليس موضوع هذه المراقعة هو الاعلام عن القضية بصورة عامة ، وانما الاعلام السينمائي على وجه التحديد ، ولذا لا بد ان نلقي نظرة خاطفة اولا على ارتباط الحركات التحررية في العالم بالفن السابع منذ طفولة هذا الفن الجماهيري . هل كانت مجرد صدفة ان الاعوام التي تلت ثورة اوكتوبر السوفياتية شهدت ايضا ثورة في الرؤيا السينمائية ، ام هل التفسير الصحيح لذلك هو ان الطاقة الابداعية تصل عادة الى ذروتها عند انسان الثورة ؟ وهل يمكن لاي باحث يبغي دراسة روح ذلك العهد ، عهد الثورة الروسية الكبرى ، ان يؤدي مهمته دون مراجعة اعمال ايزنشتاين وبودوفكين ، وغيرهما من العمالقة الاوائل في تاريخ السينما بالاتحاد السوفياتي ؟ ثم : من سمع منا بحركة سينمائية في كوبا باتيستا ؟ اما اليوم ، ففي كوبا الثورة نشاط سينمائي يستحق كل تقدير واعجاب ، وكذلك الامر في الصين الشعبية وغيرها من الدول الاشتراكية . وحدها الثورة العربية لم تترجم الى اللغة السينمائية، مع أن اليسار الجديد الذي تلقى وحيه من « المدمرة بوتمكين » و« الام » وغيرها من الافلام الثورية الكلاسيكية ، بدأ يتفهم قضيتنا حتى قبل ان نتمكن من الاعلام عنها بجدية. الا تعنينا في شيء كلمات الصحفي الامريكي المعروف سولزبرجر ، عندما كتب في صحيفة « نيويورك تايمز» يقول : « اذا كانت فيتنام هي شعار اليسار الجديد في الستينات ، فلسطين ستكون شعاره في السبعينات » ؟ (واليسار الجديد المقصود هنا هو اليسار الفتي في امريكا الشمالية واوربة الغربية) اني ادرك طبعا مدى النفور الذي يحس به العربي حينما يأتي ذكر امريكا ، فالفانتوم منها، وكذلك النابالم ، ولا تستبد الصهيونية قوتها من بلاد كما تستمدها من الولايات المتحدة . ولكني كسينمائي عربي ملتزم بالقضية ، اريد أن اقول : لنتجاوز في علاقاتنا الانظمة القائمة في امريكا وغير امريكا ، لنتخطاها في سبيل مد جسور الحوار بيننا وبين الجماهير الثورية في تلك الدول . لنسحب السجادة من تحت ارجل الانظمة القائمة في امريكا والمانيا وبريطانيا ، وذلك عن طريق خلق همزة وصل سينمائية مع اليسار الجديد في هذه الاقطار. واريد هنا التأكيد على امريكا لان فيها حاليا اكبر حركة سينمائية ثورية في العالم ، وهذه الحركة ثورية في الاتجاه والرؤية ، بقدر ما هي ثورية في التكنيك والالة . اصبحت سينما الشباب الامريكي واسطة فريدة لاعادة النظر في كل ما هو تقليدي واتباعي وموروث في ذلك المجتمع . وهذه السينما لم تشهد مولدها في هوليوود ، عاصمة الهروبية والتزييف ، وانما في المدارس والجامعات ، وحتى في الحواري الفقيرة . ففي الستينات كان الاتجاه بين أبناء الاحياء الفقيرة هو ترك عصابات المراهقين من اجل تكوين الجوقات الغنائية ، كالبيتلز ، والرولنغ ستونز وغيرها . أما اليوم ، فاللجوء هو الى الفن السابع ، الى السينما والتلفزيون . فبات شريط السليلويد والفيديوتيب كأريكة المحلل النفساني ، كوسيلة للتخاطب والحوار بين مختلف الافراد والفئات .

هذه الحركة السينمائية الفتية تدين الحرب الفيتنامية ادانة صارخة ، وتستنكر التفرقة العنصرية ، وتدعو الى الثورة على البورجوازية الرجعية الممثلة في المؤسسة التي تتخذ من البيت الابيض مقرا لها . هذه الحركة الرافضة المتحدية، اطلق على اعضائها اسم « فدائيي التلفزيون »، ووصفها امريكي خائف ، بقوله : « التلفزيون هو ديناميت ، ولكننا نتركه دون حراسة لاي مغفل يحمل علبة الكبريت » أما « المغفلون » فيرددون : « التلفزيون هو سلاح من اجل الحق ، واي شخص يستطيع استعماله .. حتى انت لو شئت ! » .

حتى نحن ؟ لم لا ؟ لماذا لا نتعلم من الدرس الامريكي ؟ ٦٢ بالمائة من مشاهدي السينما في الولايات المتحدة تتراوح اعمارهم بين الثانية عشر والثلاثين - وتكاد تكون النسبة ذاتها في الاقطار الغربية الاخرى . وبغض النظر عن رواد السينما ، فالسبعينات من هذا القرن هي عهد الشباب في العالم بأسره . وهذا هو الجيل الرافض ، جيل الشك واعادة النظر بالاشياء ، الجيل الذي لا يقبل الامور على علاتها ، ولا يقيس الاحداث والقيم بمقاييس الامس . انه جيل بيركلي وانجيلا ديفيس وود ستوك في امريكا ، وجيل المقاومة عندنا ، فلماذا لا نحاول الوصول اليه